ذكريات بيروت الأصالة

مقهى الحاج داود

عبد الفتاح خطاب

شكراً

الشكر الجزيل لكل من ساهم بمعلومة أو صورة أو اقتراح، فجعل إصدار هذا البحث عن «مقهى الحاج داود» مُمكناً. وأتمنى على كل من لديه معلومة إضافية أو صورة أو وثيقة لم أتطرق إليها، إعلامنا عنها مما يُغني هذا البحث ويوسّع إطاره بحيث قد يؤدي إلى إصدار كتاب متكامل عن المقهى، يُعزز تاريخ بيروت ويُضاف إلى كتب تراثها.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ٢٠١٧

بيروت الأصيلة

دعا الكثيرون من الغيارى على بيروت للحفاظ على الذاكرة البيروتية وديعة للأجيال القادمة، قبل أن تضمحل وتذوب وتختفي بفعل الزمن وتواتر الأحداث، وأدعو بدوري إلى تشكيل لجنة مُختصّة مهمتها جمع ما تبقى من التراث البيروتي وعرضه في متحف مُتخصص، يفتح أبوابه للزوار وللباحثين والدارسين على حدّ سواء، ويهتمّ (على سبيل المثال لا الحصر) بكل ما يتعلّق بتاريخ بيروت وعائلاتها، والعادات والتقاليد والأعراف والأعياد والمناسبات، والألبسة والأزياء البيروتية القديمة والتراثية والأثاث والزخارف والأدوات المنزلية وأدوات الزينة، واللوحات والصور و«البوست كارد» والطوابع البريدية والتذكارية والعملات النقدية عن بيروت، والمخطوطات والوثائق والمُجلّدات والكتب والمذكرات والنشرات والمجلات والدوريات، والتسجيلات والأفلام و«الفيديوهات» والأسطوانات و«الكاسيتات» والأغاني والأشعار التي تناولت بيروت، وسيرة رجالات ونساء ومؤسسات بيروت ومسيرتهم، وباختصار .... كل ما يمتّ إلى بيروت بصلة. ويُمكن لجميع من يرغب المُساهمة في هذا المشروع، تقديم هذه المواد هبة إلى «متحف التراث البيروتي»، أو إعارتها بشكل مشروط، أو السماح بتصويرها واستنساخها.

إنني أناشد كل من يهمّه شأن بيروت، وخاصة وزراء ونواب بيروت، ورئيس وأعضاء مجلس بلدية بيروت وجميع المخاتير المُنتخبين، بل أناشد أيضاً الوزراء والنواب وأعضاء المجالس البلدية والمخاتير السابقين، وكل من ترشّح إلى هذه المناصب ولم يحالفه النجاح.

وأناشد أيضاً جمعيات وروابط العائلات البيروتية، والجمعيات التي تهتم بالتراث البيروتي، وجميع الجمعيات والهيئات والإتحادات والأندية التي تتعاطى الشأن البيروتي، وكذلك المؤرخين والكتّاب والأكاديميين والإعلاميين والشخصيات، والمُختصّين بجمع تراث بيروت التاريخي والأدبي والفني والشعبي والمعماري، .... وكل من يجد نفسه معنياً بهذا النداء.

إليهم جميعاً أقول ... سارعوا إلى إنقاذ تراث بيروت قبل فوات الأوان.

اللهم اشهد أنيّ بلّغت.

مقهى الحاج داود

يتحدر الحاج داود بن عبد الكريم بن حسن خطاب من عائلة بيروتية عريقة كانت من ضمن خمس عائلات لديها «منزول» لاستضافة زوار العائلة والشخصيات التي تزور بيروت، كما جاء في كتاب «منزول بيروت» للمؤرخ المحامي الأستاذ عبد اللطيف فاخوري وهو شرح تفصيلي وتأريخي لكلمة منزول وما يعنيه ذلك عند البيارتة من أهميّة للعائلة، فالمنزول هو كناية عن بيت ضيافة مُستقل عن المنزل الرئيسي بمدخله وغرفه ومنتفعاته.

كان الحاج داود يجتمع بأصدقائه لتدخين الأركيلة (النرجيلة) في عرزال في منطقة الأوزاعي، وحصل سوء تفاهم مع صاحب العرزال ففضّل أن يكون لديه عرزاله الخاص به، وأعجبه موقع في منطقة السُنطية، فذهب إلى رئيس الميناء، وكان يُسمّى «ناظر البحرية»، وطلب مساعدته لاستثمار قطعة ارض من أملاك الدولة، فوافق على ذلك وكان جوابه «سنعطيك عشرة أذرع وان استطعت أن تطمّ البحر إلى جزيرة قبرص فهي ملك لك»! وقد بنى العرزال على الصخور عام ١٨٧٠م على الأرجح، وصار يدخّن الأركيلة هناك مع أصدقائه ويقدّم لهم الأراكيل مع ضيافة الشاي والقهوة .

المحلة التي اختارها الحاج داود كانت تُعرف منذ القرن التاسع عشر بـ«الزيتونة»، وأصبحت مركزاً للملاهي الليلية وذاعت شهرتها بدءاً من أربعينيات القرن الماضي. كانت تقع على شاطئ البحر على امتداد صخري يعلو سطح البحر بثلاثة أمتار ويتخذ شكل خليج صغير بطول ٥٠٠ متر يبدأ من موقع عرزال الحاج داود ليصل إلى مقبرة السُنطية (الصُنطيّة أو السُمطيّة).

وقد اقترح عليه بعض الأصدقاء أن يبني مقهى ويستثمره فبناه باستخدام الأخشاب (وفي فترة لاحقة بعيدة أضيف إليه القرميد)، ولأن أرض العرزال صغيرة (حوالي ستة أمتار مربعة) تمّ إنشاؤه على أعمدة خشبية من الخشب القطراني المستورد من الأناضول والمقاوم للماء والحشرات والتآكل غُرست في البحر، بحيث يستطيع الجالس أن يرى سطح الماء من تحته من خلال الفواصل بين الألواح الخشبية، وصُنعت كراسيه من الخيزران وطاولاته من الخشب فقط. ولاحقا حين تم تزويد جدران المقهى بنوافذ زجاجية كانت أمواج البحر تلطمها وخاصة في فصل الشتاء، مما يضيف عليها طابعاً خاصاً بسبب صوت الموج ورذاذه.

وقد نتج عن قِدم الأرضيّة الخشبيّة حدوث ثقوب وتآكل بفعل الزمن في بعض ألواحها بحيث أنه كثيراً ما كان الحماس يستبدّ بأحد لاعبي النرد (طاولة الزهر) فيطرح النرد بانفعال فيقع من بين الثقوب الأرضية إلى البحر، ولذلك كانت طاولة الزهر هناك تحوي على زوجين من النرد!

ويبدو أن والي سورية الشهير مدحت باشا (أبو الإصلاح) عندما زار بيروت سنة ١٨٧٨م وتوجه إلى شاطىء البحر عند الطرف الشرقي لخليج الزيتونة، دخل إلى مقهى الحاج داود وأعجب بموقعه فاشترى قطعة أرض ملاصقة له.

ويُستدل على قدم المقهى من وثيقة مؤرخة في ٢٢ رجب ١٣٠٧هـ (١٨٩٠م) وموضوعها مقاسمة قطعة أرض بين ورثة الوالي مدحت باشا تمّت بحضور إبنته فاطمة ممدوحة التي أفادت بأن والدها «كان يملك قطعة أرض معروفة بأرض المسلخ الكائنة في محلة المجيدية من محلة ميناء الحسن (الحصن) يحدها شمالاً وشرقاً بعضه البحر وبعضه قهوة الحاج داود بن عبد الكريم خطاب ...». كذلك جاء في بعض المصادر ضعيفة الإسناد أن الحاج داود أنشأ المقهى سنة ١٨٧٦م مكان فندق قديم كان اسمه «أوتيل يونيفرس».

(من أرشيف الاستاذ عبد اللطيف فاخوري)

ومع الوقت أضيف مطعم ومسبح إلى المقهى وأصبح يُعرف بإسم «مقهى ومطعم الحاج داود». ولقد تم نشر دعاية في جريدة ثمرات الفنون، العدد ١٢٢٣ تاريخ ٨ ذو القعدة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م جاء فيها:

« إعلان: أننا اتخذنا في قهوة الحاج داود الشهيرة ببديع منظرها ولطيف موقعها محلاً للطعام على ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين، وأحضرنا له من المعدات ما يكفل براحة الزايرين وانبساطهم، وليس الخبر كالعيان - محيي الدين شبقلو».

وكان المقهى قبلة العائلات الدمشقية التي تقصد بيروت أيام الجُمعة (يوم العطلة الأسبوعيّة في سوريا) للنزهة أو السباحة أو التسوّق، وكانت العائلات القادمة من حلب ومن اللاذقية تتواعد على اللقاء فيه، كما كان مقصداً للسواح العرب. وكان روّاده من الزبائن المحليّين الذين يقصدونه باكراً لتدخين الأركيلة، أو لعب الورق وطاولة النرد، أو تناول أطيب ترويقة فول (مُحاطة بتشكيلة واسعة من الأصناف)، وكان النادل فهد النخّال (كانت عينه اليُمنى تعلوها غشاوة) مشهوراً لدى روّاد المقهى ويلبي طلباتهم ويتحرك كالمكوك بين الطاولات.

وكان للمقهى مسبح بعهدة الحاج صالح عيد، ذو شاطئ رملي ناعم، وكان عميقاً جداً، كما كان أيضاً يؤجّر «الحسكات» (الحسكة هي لوح ركمجة يُستخدم مجذاف في توجيهه).

كان مقهى الحاج داود يفتح من الساعة الخامسة صباحاً ويُقفل في السادسة مساء قبل أن تزدحم المنطقة بروّاد الملاهي الليليّة والخَمّارات، ولم يكن وارداً أبداً لعب القمار أو شرب الخمور فيه.

وكان من ضمن المقهى مساحة مفروزة بالشراشف مُخصصة للعائلات، ويُقال إن الحاج داود مرّ قربها يوماً واشتمّ رائحة مشروب العرق الكحولي، فاقترب من الطاولة وأمسك بشرشفها من زواياه الأربع وحمله بما فيه من صحون وكبايات وغيرها ورماه في البحر.

اتصل المقهى بالشارع العام بواسطة زاروب (زقاق)، وكان له مدخلان وسُلّم (درج)، وباستطاعة الزبائن أن يوقفوا سياراتهم في الزاروب. وقبل أحداث ١٩٧٥م، أطلقت بلدية بيروت إسم الحاج داود على الشارع تكريماً له.

احتضن المقهى المثقفين والشعراء إضافة إلى الصحافيين والسياسيّين، وتردّد عليه بشكل دائم الشاعر أمين نخلة والفنان التشكيلي مصطفى فروخ ونقيب المحامين الشاعر ميشال عقل وآخرين ممن أسسوا تاريخ لبنان الحديث سياسةً وأدباً وفكراً. لقد كان بحق ملتقىً للرواد من كل لبنان، ورمزاً من رموز الإنصهار الوطني. ويعتبر «مقهى الحاج داود» مركزاً للحفاظ على التراث والحكايا الشعبية التي تشكّل ذاكرة الوطن، ونموذجاً لذلك.

ومن روّاد المقهى أيضاً الطبيب والنائب والوزير والأديب السوري عبد السلام العجيلي. أما الشاعر العراقي الكبير الساخر أحمد صافي النجفي فكان يعتبر مقهى الحاج داود مكتبه ويعقد لقاءاته فيه، وكان يجلس جلسة مزاجيّة فلا يكتفي مثلاً بكرسي واحد يجلس فيه، بل يستعين بآخر يمدّ عليه رجليه أو يتكئ عليه، وثالث يضع عليه الصحف، ورابع يضع عليه إذا شاء كوفيته وعقاله، وهو بعد هذا كله كان ينزع حذاءه في الغالب ويرفع رجليه واضعاً قدميه على حافة الطاولة.

أما الذين يلتفون من حوله فكان كل واحد منهم يسحب كرسياً ويُدنيه منه جالساً عليه حتى تتألف حلقة كانت تضيق وتتسع حسب الظروف. وأحياناً كان النجفي رغم وجود الحلقة يجد في نفسه ميلاً إلى أن يسرح بخياله فيفعل مُغمضاً عينيه. ولا يفتحهما في الغالب إلا ليُسجّل بيت شعر أو حتى رباعيّة استوحاها من تلك الإغفاءة. وكان من صَحْبِه الشاعر والمفكر ميخائيل نعيمة، الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري)، والكاتب والأديب مارون عبود، وآخرون ... وكان يدوّن قصائده على حواشي الصحف، وعلى أغلفة علب السجائر، ويُحرّرها ليلاً في غرفته على ضوء مصباحه الوحيد، الذي يتدفأ به أيضاً.

واعتاد المُربّي السوري محمد كامل بنقسلي، مستشار وزير التربية والتعليم في الكويت الشيخ عبد الله الجابر الصباح، أن ينزوي في كل عطلة صيفية على طاولة في المقهى، وينصبّ على كتابة مؤلفاته من قصص الأطفال وكتب التربية النفسية للأولاد.

يقول الفنان التشكيلي أمين الباشا «هذا المقهى يترك عندي جوعاً إلى الطفولة. كنت أزوره مع الوالد صباح كل يوم أحد، كان فيه مكتبة تدخل إليها من باب خشبي، يشتري الوالد منه كتاباً، وندخل إليه لوقت طويل، والدي يقرأ وأنا أشرب «الكازوزة» وأتفرج على البحر».

وجدير بالذكر أن مكتبة صغيرة ذات قنطرة حجرية وباب خشبي كانت موجودة بجانب المقهى، وكان رواد المقهى يشترون منها الكتب والمطبوعات، كما كانت «تؤجّر» الكتب أيضاً!

وكان المقهى قبلة للسياسيين وأبرزهم دولة الرئيس سامي الصلح الذي كان يرتاده منذ كان قاضياً و حتى بعد أن اصبح رئيسا للحكومة، وكذلك معظم نواب بيروت وعدد كبير من الصحفيين ومنهم مؤسس جريدة «النهار» جبران تويني، الذين اعتبروا المقهى بمثابة منتدى لهم يتداولون فيه أوضاع السياسة والبلد.

وارتاده القاضيان إحسان مخزومي ورفيق غزاوي والتقيا المحامين فيه، والمدير في وزارة الزراعة المهندس عادل أبو النصر، ولفيف من المنتمين إلى «حركة القوميين العرب» ومنهم المحامي عمر زين وصاحب مطبعة منيمنة منير منيمنة وآخرون.

كما كان مركزاً للقاء يومي بين عبد الرحمن بكداش العدو (نقيب القصّابين وتجار المواشي)، ومنير فتحه (نقيب تجار الفواكه والخضار بالجملة)، ويوسف دوغان (نقيب تجار الفواكه والخضار بالمفرق) وعثمان المعبّي (أمين سرّ النقابة)، وكانوا يتداولون بمُستجدات الأمور السياسية والوطنيّة و"يطبخون" الإنتخابات ويحضّرون لها، وكان ينضم إليهم أحياناً دولة الرئيس تقي الدين الصلح.

نقلاً عن الحاج محمد فضل خالد أنه كان يلتقي الدكتور محمد خالد، إبن سماحة المفتي محمد توفيق خالد، ومؤسس المؤسسات الإجتماعيّة المعروفة بإسمه، في مقهى الحاج داود حيث يتواجد معه شقيقاه الدكتور بكري خالد ومختار خالد عضو مجلس بلدية بيروت، وكذلك البروفيسور وفيق سنو الرئيس السابق لاتحاد جمعيّات العائلات البيروتية، وغيرهم، كما كان يقيم مآدب الغداء في مطعم المقهى.

وينقل خبراً طريفاً أنه في حال وجود طاريء، كان يتمّ استدعاء الدكتور محمد خالد عبر إطلاق سهم ناري من سطح مستشفاه في محلة البسطة الذي يُشرف على موقع المقهى، وهو بدوره يردّ بإطلاق سهمين دلالة على أنه في الطريق إليهم، فيركب سيارته البويك وينطلق مُسرعاً نحو المستشفى.

ويُضيف: كان المقهى ملتقى لجميع الأطياف ومن المناطق كافة، مُسلمين ومسيحيين ويهود ومنهم زكي زيتونة من كبار تجار الأجواخ. كما ارتاده قبضايات بيروت ومنهم راشد اللوزي وأبو سعيد جنّون ودرويش بيضون، ومختار محلة الأشرفيّة محمد شاكر بيضون. وكان مدير الأمن العام الفرنسي في سوريا ولبنان المفوّض كولومباني يلتقي القبضايات في المقهى لتسوية الأمور وتهدئة الأوضاع! ونقلاً عن عائلة بيضون أن المفوّض كولومباني كان صديقاً شخصياً لدرويش بيضون (أبو علي) كما أصبح شريكاً له في أعماله التجاريّة!

في إحدى المرّات كان احد الضباط الفرنسيين يجلس ويضع ساقاً فوق ساق، وهذا أمر كان يغيظ درويش بيضون، فطلب منه أن يجلس معتدلاً، فلما أبى الضابط أمسكه وكرسيه وقذف به إلى البحر!

اما التجار ورجال الأعمال فقد قصدوه لتناول الترويقة واحتساء القهوة بسبب قربه من الأسواق التجارية، كما تحوّل إلى ملتقى حيث يوقعون الإتفاقيات ويُبرمون الصفقات.

كان موقع المقهى علامة فارقة في بيروت، فمنه ثبتت رؤية هلال شهر شعبان سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م، كما استخدم موقعه للاستدلال على العناوين، وقد نشرت جريدة لسان الحال سنة ١٩١٠ إعلاناً طريفاً يقول: «كلمة حق .. إن اتقن وأطهر نُزل معنىً وحسّاً النزل المُسمى «لوكندة قصر البحر» في بيروت بجوار قهوة الحاج داود، وهو الوحيد بمفروشاته النفيسة ومناظره البديعة براً وبحراً، وبالاختصار إن لسان حاله ينادي بملء السرور: يا ابن الأكارم ألا تدنو فتبصر ما .. قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا».

توفي الحاج داود خطاب عام ١٩٠٤م، وكان لديه ولد إسمه الحاج سعيد وكان مديراً للجمرك. لم يرغب في التفرّغ للمقهى، فالتقى بالحاج محمد الحلواني وكان في حينه «شيخ كار القهاوي» أي رئيس نقابة أصحاب المقاهي، واتفقا على أن يُدير الحاج محمد المقهى وأن يقتسما الأرباح.

الصورة من اليمين: كامل و داود يحيطان بوالدتهما

ثم توفي الحاج سعيد خطاب وله ثلاثة أولاد، كامل وكان مديراً للجمرك، وداود وكان تاجراً، ورمزية، واستمر سريان الإتفاق مع الحاج محمد الحلواني. بعد وفاة الحاج محمد استمر الإتفاق مع ولديه عبد القادر وعبد الرحمن، وكان يعمل لديهما شقيقهما عبد العزيز. وبعد وفاة سعدا وزان أرملة الحاج سعيد خطاب، باع الورثة المقهى لعبد القادر وعبد الرحمن الحلواني.

والطريف أنه من ضمن اتفاقية البيع اشترطوا تقديم فنجان قهوة وقطعة من راحة الحلقوم مع المستكة مجاناً لدى زيارتهم المقهى!

وكان مقهى الحاج داود درج على تقديم راحة الحلقوم مع القهوة إلى زبائنه، وهي فكرة اقتبسها عنهم حالياً بعض مقاهي وسط بيروت.

وقد صوّر المخرج مارون بغدادي عام ١٩٧٥م مشاهد من فيلمه «بيروت يا بيروت» (الذي عُرض عشية الحرب الأهلية و«اعتبر نبوءة بها») في مقهى الحاج داود، والفيلم من بطولة عزت العلايلي وميراي معلوف وجوزيف أبو نصار وأحمد الزين وثريا خوري. كما صوّر عام ١٩٨٠م الفيلم التسجيلي «همسات» عن الشاعرة ناديا تويني، وفيه مشاهد عن المقهى.

تم ترميم المقهى وتأهيله عدة مرات على مرّ تاريخه، وخاصة بعدما ضربته العاصفة العنيفة عام ١٩٦٨، لكن بفعل الحرب واشتداد المعارك في فترة الحرب الأهلية اللبنانية، هُجر المقهى، قبل أن يُدمّر ويحترق بالكامل في كانون الأول / ديسمبر من العام ١٩٧٥م، ويصير في ذمّة الذكرى، وفيما بعد رُدمت المنطقة بأكملها في التسعينات!!!

وقد نظم الشاعر البيروتي أمين اللادقي يصف ما حدث من دمار في بيروت فقال:

مررت على الأسواق لا ادريس ادريسُ — وليس على سوق الجميل أنيسُ
ونزلت نحو البحر في داوودهِ — ما كان فيه مؤرجلٌ وجليسُ
ومشيت في سوق الطويلة كي أرى — كيف الخراب يريده ابليسُ.

كانت تعرفة المقهى عام ١٩٧٠م على الشكل التالي: «الأركيلة مع القهوة والمرطبات ٤٠ قرشاً، وصحن الفول مع رغيفين وسرفيس كامل ٧٥ قرشاً، وصحن خضرة مطبوخة خمسة أصناف وقرص كبّة مع رغيفين ١٥٠ قرشاً، وأوقية اللحمة المشوية ورغيفين وسرفيس أو كيلو سمك مقلي أو مشوي ثلاث ليرات، وإذا أضيف حمص أو طرطور أو سلطة أو كبيس ٥٠ قرشاً. وكان يقدّم بعد الأكل «فروتو» (فاكهة موسمية)». وكانت القهوة مغليّة على الفحم «الدّقة»، أما الأركيلة فإذا أحضر الزبون التنباك فإن «الأركلجي» الحاج رباح حرب كان يتقاضى ٣٥ قرشاً لقاء الخدمة».

وشهد المطعم إقبالاً كثيفاً على الصحن الذي عُرف بإسم «مخلوطة» لأنه يضمّ تشكيلة من عدّة طبخات وكانت تعرفته ليرة واحدة، مما جعل موظفي الشركات وعمال الورش والمحلات التجارية يقبلون عليه، ومنهم عُمّال ورشة الحاج أحمد فتح الله للأبواب الحديدية.

أما صيّاد السمك المشهور بـ«أبو خليل النجماوي» فيقول عن المقهى «أنّه أحد أشهر مقاهي بيروت القديمة على الإطلاق، وما في أطيب من أن تأكل الفول المدمّس وحمص «المسبّحة» على البحر تماماً».

ويضيف: «كنت أهوى السباحة هناك، وكنت أتصيّد وأبيع السمك لقهوة الحاج داود، هيدي كانت قهوة صايرة متل جزيرة بقلب الميّ».

وعلى ذكر السمك، فقد ذكر عمر فاخوري حكاية رواها له زريق السمّاك وخلاصتها أن البحر في الحرب العالمية الأولى كان مُقفلاً ونُمي إلى الصيّادين أن قوماً يُدعون بالبلشفيك ثاروا وأخلوا بالنظام فأُغرقوا في البحر الأسود ... وفي تلك المدة ظهر عند ساحل الزيتونة صنف من السمك لا نعرفه، سمك غريب سميناه البلشفيك!

مسك الختام ما كتبه الأستاذ عبد اللطيف فاخوري في تعليق له: «خليج الزيتونة لحقته العجمة فأصبح « زيتونة باي» ... والحاج داود لم يعد مرغوباً به في الزيتونة الجديدة»، مُضيفاً في تعليق آخر «الرملة، والدالية، والزيتونة باي، تقول للبيارتة: باي باي!».

بيروت

رحم الله الحاج داود خطاب (جدّ والدي) ... كان ومقهاه رمزاً من رموز بيروت الجميلة الأصيلة.
كما أقول بكل أسى: أشتاق وأحنّ إلى بيروت التي عرفتها .. وعشتها .. وعشقتها!

عبر التاريخ

١٩٥٠

١٩٧٢

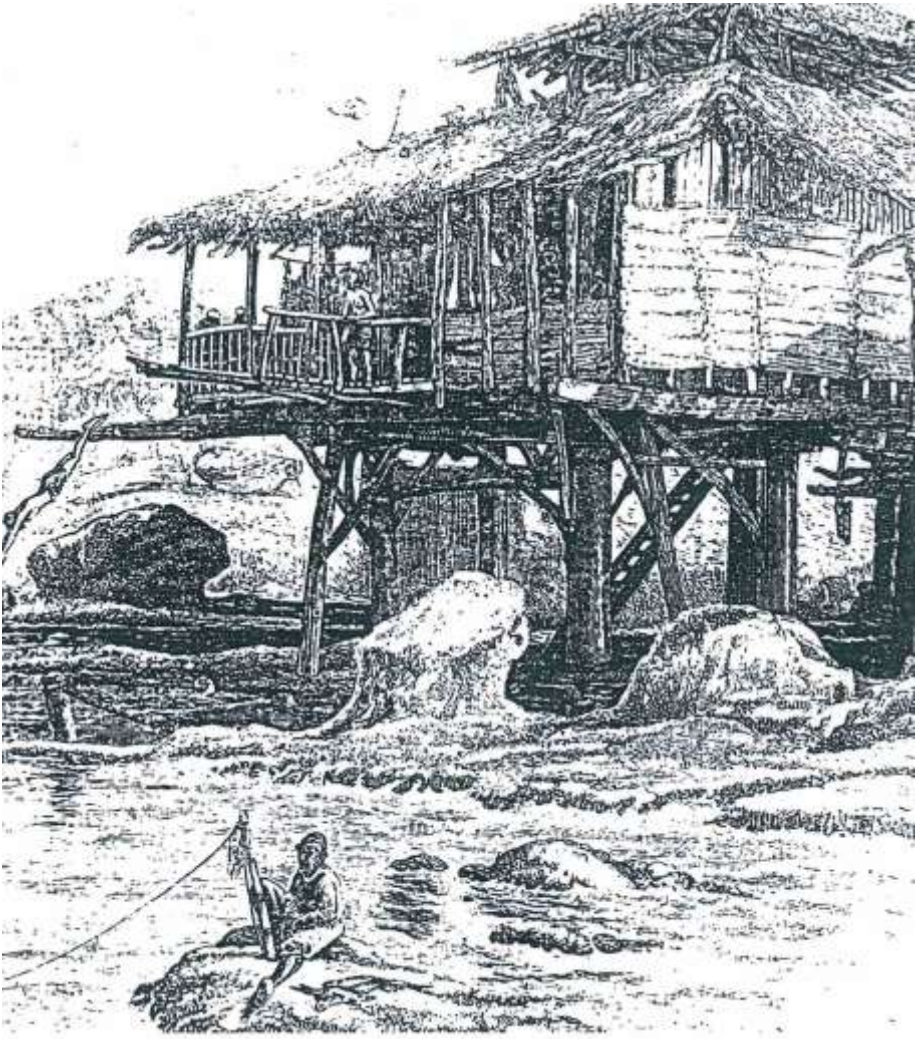

مقهى الحاج داود